اليابان ونظمها التعليمية

بقلم الدكتور سيدراس مسعود نواب مسعود جنك بهادر
وزير معارف حيدر آباد سابقاً ونائب رئيس جامعة عليكرة حالاً

تعريب الاستاذ احسان سامي حقي

أستاذ الأدب العربي بجامعة عليكرة بالهند

[خاصة لمجلة المعرفة]

لا بد لنا قبل الخوض فى هذا الموضوع من أن نبحث قليلا عن بلاد اليابانيين ، وعاداتهم وأطوارهم وأخلاقهم ومذاهبهم ، لنعلم ما لاقى العلم فى الوصول إليهم من العثرات والحوائل فى سبيله ، أو ما ناله من الاستحسان والرغبة ؛ لأن قبول الشيء أو رده ينحصر دوماً فى ما تحتويه نفس طالبه أو الراغب فيه من ميل أو نفور ؛ ولذلك لا بد من هذا البحث لما له من التعلق العظيم بهذا الموضوع .

من ينظر فى مخطط العالم يرى أن اليابان أشبه برؤوس جبال نائئة من البحر ، وكلها بركان مشتعل ؛ حيث يوجد فى هذه المملكة — التى تتألف من نحو ٣٫٠٠٠ جزيرة — نحو ٢٠٠ بركان ملتهبة ، والزلازل لا تفارقها قط ؛ وقد بلغت الزلازل ٣٠٦٨٠ زلزلة بين سنتى ١٨٨٤ — ١٩٠٥ ، أى بمعدل أربع زلازل يومياً ، على أنه فى الأزمان الغابرة كانت أكثر من ذلك ؛ فأهل اليابان إذاً عرضة دوماً للأخطار التى تنجم عن الانفجارات . وتبلغ مساحة هذه الجزر ١٤٢٫٠٠٠ ميلا مربعاً ، وتضوسها نحو ٦٠ مليوناً ، وهم بالنظر لبعدهم عن العالم ، ولكونهم عرضة دوماً للأخطار من هجمات الأعداء ، وغير ذلك ، لم يعتنوا بشيء اعتناءهم بالجندية وأمرها ، وتربية أطفالهم على حب الوطن والسلطان الذى يعتبرونه إلهاً ومن سلالة الآلهة ؛ ومن غريب أمر السلالة السلطانية فى اليابان أنها هى السلالة الأولى التى حكمت اليابان ؛ ولا يعرف فى تاريخ اليابان أن سلالة أخرى حكمت عليها غيرها ، وذلك لأنهم — كما ذكرت آنفاً — يعدون السلطان إلهاً ، والخروج عليه يوجب غضب الآلهة آبائه وأجداده ؛ ولذلك فهما حصل من الاختلال فى اليابان ، ومهما بلغت الأمور من الشدة أقصاها لا يكون الخلاف ضد السلطان أو عائلته قط ، بل هو فى أمن وأمان من ذلك ، إذ لا يمكن لأحد أن يمسه بسوء ، وكل فرد من أفراد الشعب اليابانى يعد نفسه خادماً للوطن أولا ، وللسلطان ثانياً ، وكل ما يسعى إليه هو أن يصون الاثنين من كل غارة ، ومن كل ما يسيء سمعتهما ؛ وكلهم يحسب سعادة الدنيا والآخرة فى أن يموت فداء لسلطانه ولو بالانتحار ؛ واليابانيون يعدون أنفسهم جميعاً كعائلة واحدة كثيرة أفرادها ، وسلطانهم رئيس هذه العائلة ، وقد بلغت درجة احترامهم وتعظيمهم

للسلطان درجة عظيمة ، حتى إنهم أصبحوا لا يجيزون معها أن ترسم صورة السلطان على الطوابع أو العملة ، ولا أن تعلق فى الأسواق والأندية عارية،إذ يعدون ذلك توهيناً للدين، وأينما علقت صورة السلطان ـ حتى ولو فى الدكاكين والأندية ـ لا بد وأن تكون مستورة بغلاف من الورق ـ ولو كانت موضوعة لأجل البيع ـ ، ومن عجيب ما روى فى هذا الباب : أن النار اشتعلت مرة فى مدرسة فجأة فلم يستطيعوا إخراج مافيها من المتاع،فنظر تلميذ — كان خارج الايوان — صورة السلطان معلقة فى صدر الايوان ـ كما هى الأصول فى ذلك فى بلاد اليابان ـ فأخذته الحمية وأيقن أن النار ستأكل السلطان عن قريب ، فاقتحم النيران الملتهبة وانتزع الصورة من الحائط ، وشق جوفه ووضعها فيه وهم بالخروج ، ولكن روحه كانت قد فارقت جسده فخر على الأرض صريعاً ؛ ولا يسمح اليابانيون بأن يقف أحد فى المجتمع أعلى من موقف السلطان ، لذلك إذا ما مرت مركبة السلطان فى الشوارع يغلق أصحاب المنازل العالية الأبواب والنوافذ ، ويسيلون السجف عليها ؛ وكثيراً ما أوخذ الأوربيون فألقوا فى السجون لمخالفتهم هذا الأمر ، حيث إنهم يكونون غير عالمين بذلك ، فاذا ما سمعوا الجلبة أطلوا من نوافذهم فتقبض عليهم الشرطة .

ويحكى مرة : أن شيخ بلدة من البلدان سمى مولوداً باسم السلطان من غير أن يعلم أن هذا الاسم هو اسم السلطان — لأن اسم السلطان الأصلى لا يذكر على لسان أحد،بل يسمى باسم فرضى ـ ، فلما ذهب لتسجيل ذلك طلب إليه مأمور السجل أن يطلب السماح والعفو عن هذا الخطأ ، ولكنه رأى أن طلب العفو لا يغفر له هذه الزلة العظيمة ، فلم ير بداً من الانتحار ، فانتحر فى الحال .

أما أخلاقهم فهى فى غاية الكمال ، حيث يرون أن من أكبر واجبات الانسان أن يكون عضواً مساعداً لأخيه فى كل حال من حالاته ، وأن لا يفضل أحد نفسه على غيره،وهم يمتلئون بالبشاشة والصبر ، وشعارهم : الحزم،وتحمل المشاق ، وألا يقابل أحد أحداً إلا ضاحكا ، حتى إنه إذا ما حدث حادث ، أو نزلت مصيبة بأم رءوم ودخل عليها أحد الأقرباء أو الأصدقاء ، تركت ولدها الميت على فراشه واستقبلت الضيف بكل طلاقة ، ثم تقص عليه حالها بكل صبر وثبات ورباطة جأش ، وهم يأنفون أن يسمعوا أو يروا أحداً أرفع منهم قدراً أو أكرم أخلاقاً ؛ ومن ذلك أن أحد القسوس مرة فقد متاعه فى إحدى المحطات ، فأخبر دائرة الخط الحديدى ، فأرسلت إليه ثلاثة من موظفيها تقول له : إن متاعه قد وجد ، ولكن عليه أن يدفع أجرة حمولته من المحطة إلى داره فتوصله إليه،فأجابهم القسيس :إنى لو كنت فى لوندرة ووقعت مثل هذه الحادثة لكانت دائرة الخط الحديدى ترسل إلى متاعى على حسابها ، فما أن سمع هؤلاء الموظفون هذا القول حتى انصرفوا عنه وأخذوا يتحاورون فيما بينهم ، ثم قال له

قائلهم : كن مطمئناً ؛ سيصل إليك متاعك بغير أجرة ، وذلك أنهم أخذوا بعامل الحمية حينما قال لهم : « إنى لو كنت فى لندرة ... الخ » ، ولم يرضهم أن يكونوا أقل من الانكليز ، فدفعوا الأجرة بصورة إهانة ، رغم فقرهم وقلة رواتبهم . وقال الدكتور سيدراس الذى ترجم عنه هذا الموضوع : إنه اجتمع مرة بتلميذ ، فحاوره فى أمره ، وكيف يحصل العلم ، وهل لديه مال لذلك ؟ فقال له من غير شكوى : إنى فقير معدم جداً ، وقص عليه قصته ، وإنه يأكل فى كل أربع وعشرين ساعة مرة واحدة ، ويعمل بيده لاكتساب رزقه ، ويأتى من بعد ٦ أميال يومياً إلى المدرسة . فأخذته الشفقة به ، وأراد مساعدته بقليل من المال ، فرفضه شاكراً هاشاً باشاً بقوله : إن دم أولئك الأحرار الفدائيين من آبائى وأجدادى اليابانيين لا يزال يجرى فى عروق ، وإنى إن لم أكسب منهم شيئاً ، فقد كسبت منهم الصبر والتحمل والغيرة والحمية .

أما حبهم للوطن وإطاعة الأمر ، فهو عديم المثال فى غيرهم ؛ ومن ذلك : أن أرملتين انتحرتا أثناء الحرب التى كانت قائمة بين الروس واليابان ، وذلك لأن القانون الحربى اليابانى يقضى باعفاء أولاد الأرامل من الخدمة فى الجندية ، فانتحرتا ليتسنى لأولادهما الذهاب إلى الحرب ، والدفاع عن الوطن ؛ وإذا ما شعر جندى أن فعله قد ساء آمره ، فلا يرى لذلك من مبرر إلا أن ينتحر حالا إرضاء لآمره ؛ ولذلك ترى الضباط والأمراء يسلكون دوماً مع جنودهم مسلك الأخوة والحنو ، ولا يبدون لهم العبوس ، كى لا يظنوا أن ذلك عن غضب فينتحروا ؛ وإذا ما أذنب جندى وثبت جرمه فلا يعدم بأيدى الجلادين ، ولا بالصلب ، ولا بغير ذلك ، بل يسمح له بالانتحار ، فيعلن عن يوم انتحاره ، فيحضر من قبل الحكومة بعض رجالها ، ويجتمع الناس فى ساحة والمجرم فى وسطها ، ثم يعلن انتحاره ، ويأخذ المدية ويشق بها بطنه من غير أن يبدى آثاراً للتعب أو التأسف على الحياة أو الأهل والأصدقاء — على الأقل — ، وليست هذه الجرأة محصورة فى الرجال فقط ، بل هى أيضاً فى النساء ، وانتحار المرأة يكون بأن تقطع رأسها بيدها ، لا أن تشق بطنها .

ولا يرون كفارة للاهانة إلا أن يعدم المهين بأيدى الحكام ، وينتحر المهان ، لأنهم يرون أن الحياة عاراً مع الاهانة ، ولذلك كثيراً ما يصادف الأجانب صعوبات فى هذا الشأن .

وهم يربون أطفالهم من الصغر على هذه الأخلاق وعلى الشجاعة ، ويغرسون فى أدمغتهم أن الجندية هى أشرف عمل ، وأن الموت فى سبيلها نعم الموت ، وهم بتربيتهم هذه أشبه بهم بالاسبارطيين ، حيث إنهم يعلمونهم قبل كل شىء ألا يخافوا من أحد ، ويأخذونهم إلى المقابر وإلى الأماكن المخيفة ، وحيث حصل قتل أو أريق دم إلى غير ذلك ، حتى يصبح الطفل لا يهاب شيئاً حتى الموت ، وكثيراً ما يجربون الأطفال ويحملونهم على الانتحار ، فينتحرون حالا وهم ضاحكون .

أما مذهب اليابانيين فهو مذهب مدنى ، تغييره وتحريره بأيديهم ، وهم لا يرون حياة بعد الموت ، ولا نشوراً ، ولا بعثاً ، ولا قيامة ، ويقولون إنه إذا مات الميت لا تذهب روحه إلى النعيم ولا إلى الجحيم ، بل تبقى هائمة فوق قبره ؛ ولذلك يرون — من قبيل احترام الآباء والأجداد — أن احترام القبور واجب من الواجبات الدينية ، ويسعون دوماً لارضاء أسلافهم بالسير على آثارهم ، لأنهم يعتقدون أن مخالفتهم توجب غضبهم عليهم ، ولذلك لما قصدهم المبشرون للمسيحيون ودعوهم إلى النصرانية لبى كثير منهم الدعوة ، وذلك لما كانوا يزينونه لهم من الأمور التى خدعوهم بظاهرها ، فظن هؤلاء المساكين أولئك المبشرين رسل رحمة إليهم ، ففتحوا لهم صدورهم ، وأقبلوا على اعتناق النصرانية أفواجاً ، إذ أنهم يحسبون أن النصرانية هى أيضاً كجمعية مدنية تدعو إلى الاخاء والمحبة ، فلا بأس من معاضدتها ومناصرتها ؛ فدخل فيهم هؤلاء المبشرون كما يدخل السوس فى الخشب ، وكما هو الحال فى البلاد ، إذ أنهم يأتون بالكتاب للتبليغ والسيف من ورائه ، ثم لم يلبثوا أن استولوا على تجارة البلاد بأجمعها ، وجعلوا يبذرون بذور التفرقة بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، فاستفحل أمرهم وكادوا يبتلعون اليابان لقمة سائغة ، لولا أن استيقظ اليابانيون وضربوا على أيدى هؤلاء الجواسيس ضربة قاضية ، وذلك أنهم قبضوا على كتب من هؤلاء القسس إلى حكوماتهم يبشرونهم بما فازوا من التفرقة بين الأقوام اليابانية .

وقبل أن أخوض فى هذا البحث أرجع إلى ذكر أصل المذهب اليابانى :

قلت أولا أن ليس لليابانيين مذهب كما لباقى الأقوام من مذاهب ، بل إن ما يرونه من الأمور متفقاً مع طباعهم يقبلونه ، وأول مذهب يقال إن اليابانيين كانوا يعتقدونه هو مذهب (شنتو) أى الآلهة ، وليس هذا المذهب — كما يفهم من معنى المذاهب — مجموعة عقائد مسلمة ، أو كتاباً موحى به من الله ، أو نظاماً أخلاقياً ، بل هو عبادة الأسلاف والكائنات واحترامهم ، وخلاصته هو : « أن الانسان فى العالم الظاهر والباطن يسير الحى منه الميت بأفعاله ، كما وأنه يستطيع أن يؤذيه بأفعاله » ، ومما يقال : إن اليابانيين — حتى القرن السادس المسيحى — لم يعلموا معنى للمذهب ، ولكن لما حدث العصيان أخيراً ضد الوزارة الموروثة — التى تسمى بلغتهم (شوكن) ، والتى كانت هى المسيطرة على البلاد طولها وعرضها ، وليس للسلطان من الحكم إلا الاسم — كانت نتيجة هذا العصيان أن رغب الناس فى ترويج مذهب (شنتو) القديم مخالفة لمذهب (بدا) الذى كان مذهب أولئك الوزراء ، ولم يرغبوا فى إحياء مذهبهم القديم لأغراض دينية — لأنهم بعيدون عنها كل البعد — بل لأغراض سياسية ، وكل ما كان فى هذا المذهب هو أصلان : (١) احترام الجذبات القطرية ومتابعتها ، (٢) إطاعة السلطان فرض لازم.

ولكن لما تسنم كرسى الوزارة (أيى ياسو) مؤسس وزارة (توكوكاوا) أحد مناصرى

مذهب (كونفوشيوس) — الذى بدأ ينتشر فى البلاد الصينية فى القرن الأول المسيحى — طبع لأول مرة كتب المذكور وأشاعها ، فلم يمض على إشاعتها إلا مدة قليلة حتى أصبح هذا المذهب مذهب اليابان كلها . ثم دخل مذهب (بدا) فى القرن السادس المسيحى اليابان،وانتشر بسرعة البرق ، وذلك لأن دعاته كانوا يقولون : « إن إله مذهب شنتو هو نبي بدا » ؛ ولذلك استطاعوا أن يزلزلوا مذهبهم من صدورهم ويحلوه محل المذهب الأول بكل سهولة ؛ وخلاصة مذهب (بدا) هو : أن النجاة لا تكون إلا بالعلم أو نور القلب ، وإيصال الانسان نفسه إلى منتهى الكمال هو عين النجاة ، وأن الخضوع والخشوع أمام الآلهة هو الغاية الحقيقية للحياة ، وأن الفناء — حال الحاضر — هو آخر المنازل الروحانية ؛ ويقولون : إن المجىء من العدم إلى الوجود أمر قبيح جداً ، وسببه يرجع إلى أصلين : الجهل،والشهوات النفسانية.

ثم فى القرن السادس عشر دخلت المسيحية إليهم فاعتنقوها أو اعتنقوا بعض أصولها ، فأصبحت ديانة أهل اليابان إذن مجموعة مركبة من الأديان الأربعة تركيباً مزجياً ، وهى : مذهب (شنتو) ، ومذهب (كونفوشيوس) ، ومذهب (بدا) ، والنصرانية ؛ ولما كانت الأديان الثلاثة الأولى ليس فيها إيمان بإله قادر مطلق قاهر ، والنصرانية هى فى كل مكان خلافها فى غيرها ، أى أنها تسير سيراً سياسياً ؛ لأن غرض المبشرين هو احتلال البلاد لا نجاة العالم فى الآخرة — كما يقولون — ، ولذلك فإنهم أينما ذهبوا وكيفما اتجهوا ، يظهرون بدينهم مظهراً غير الذى يظهرون فيه فى البلاد الأخرى — لذلك إذا ما ذهب أحد السياح إلى اليابان ، وجعل يدعو الله ويصلى يسخرون منه ويعجبون من هذه الأفعال .

وأما كتب اليابان التاريخية فهى كتابان ، يرجع إليهما أصل التاريخ اليابانى القديم بأجمعه : الأول كتاب (كوجيكى) ، وهو عبارة عن مجموعة وقائع ؛ وقد ألف سنة ٧١١ م . والثانى كتاب (نيهون شوكى) ، وهو تاريخ اليابان ، وقد ألف سنة ٧٢٠ م . وأرى من المناسب ترويحا للنفس أن أنقل ما جاء فى (كوجيكى) عن خلق العالم ، حتى تعلم — من هذه — الحالات المذهبية الأولى فى اليابان قبل أن يختلطوا بغيرهم ، وهو : إن فى ابتداء خلق السموات والأرض ظهر إلى عالم الوجود من أعلى السموات كامى [معنى كامى : هو الاله أو السلطان أو ما أشبه] اسمه [أمينو مينا كانوشى نوكامى]،ثم ظهر بعده كاميان:الأول[تا كاميموسو بينو كامى] ، والثانى [ميمو سوبى نوكامى] خلقوا أنفسهم ، وهم جميعاً واحد وهو غائب [هذا هو مذهب النصرانية الممثل فى الأب والابن وروح القدس ، فالثلاثة واحد والواحد ثلاثة]؛ ويقولون : إن الأرض كانت كنقطة زيت سابحة فوق الماء ، وكانت الأشياء تتولد عليها وتتفرع منها كما تتفرع عيدان القصب من جذع القصبة ، ومن هؤلاء الثلاثة وجد [كامى] آخر اسمه [أوماشى اشى كابى هيكوجى نوكامى] ، وبعده وجد [أمينو توكوجى نوكامى]

أو [كونينو توكوجى نوكامى] ، وكلهم خلقوا بأنفسهم . ثم ذكر فى نفس الكتاب ـ أى كوجيكى ـ أن من [أمينو مينا كانو شينو كامى] ولد السلطان والعائلة السلطانية ؛ ومن [تاكا ميمو سوبى] و [كامى ميمو سوبى] شركاء اليابان ووجهاؤهم ، وكذلك منهم ولد (كامى السماء) أى الوجهاء أصحاب الدم الخالص ؛ و (كامى الأرض) أى الوجهاء أصحاب الدم المزيج .

ومن غريب ما فى مذهب (شنتو) أن أتباعه بخلاف أتباع كل المذاهب ، لا يلتجئون إلى آلهتهم عند الحاجة ، ويجب على كل من يريد اتباع هذا المذهب أن يكون تابعاً للقوانين الفطرية ، وأن يتمتع من محاسن الفطرة ؛ وعقائدهم هى : أن الطهارة تحصل إما بالهواء أو بالماء ، وأن الدم هو شىء نجس منجس ، وحيث إن (كامى) يستطيع أن يرى كل شىء، لذلك من الواجب على كل شخص أن ينظف جسمه وروحه وقلبه من كل الكدورات ، ومن جملة آيات مذهب (شنتو) هو : كونوا طاهرين فى السماء ، كونوا طاهرين فى الأرض ، كونوا طاهرى الباطن والظاهر ، كونوا طاهرى الأصول الستة (وهى الحواس الخمسة والقلب) .

بناء على هذه القواعد ما زال اليابانيون يعتنون بنظافة أجسامهم وثيابهم وطعامهم وشرابهم وملابسهم ، إلى غير ذلك .

والخلاصة أن اليابانيين ـ منذ القديم وحتى الآن ـ لا يعرفون من المذهب شيئاً قط ، وكل ما عندهم أن السلطان هو إلههم الحى ، وأنه كفيل بأرزاقهم ، وأن إطاعته فرض عليهم ، ولذلك فكل ما فى صلاتهم هو دعاؤهم قائلين : « ليحى السلطان » ، والسلطان يدعو لهم بالسلامة والخير ؛ ولكن مع كل هذا فان عقلاء اليابانيين لا يرون بدأ من المذهب ، ومن أشهر أقوال عقلائهم قول المستر (فوكو زاوا) ـ بانى جامعة (كى) ومحيى العلوم الجديدة فى اليابان ـ حيث يقول : « لا جدال ولا نزاع فى أنه لا بد من مذهب تعتقد به العامة لقيام الأمن فى هذه الحياة ، ولا فرق عندى فى المذاهب ، فان أى مذهب اعتنق يقوم بإيفاء هذه الغاية ، وعلى أنى لست من الميالين إلى العقائد الدينية ، ولا أومن بمذهب أو دين من الأديان فلا أؤاخذ فى الحث على اعتناق المذاهب ، لأن إيمانى لا يساعدنى أن ألبس لباساً لا يعتقد بصحته أو فائدته قلبى ... المذاهب كثيرة لا تعد ولا تحصى ، ولكنى مع ذلك لا أرى من فرق بينها قط إلا كما أرى من الفرق بين الشاى الأخضر والشاى الأسود ، فاشربوا هذا أو فاشربوا ذاك فالاثنان سواء ، وكل ما فى الأمر أنه يجب أن يجرع ـ من لم يذق الشاى حتى الآن ـ شيئاً منه ليعلم مذاقه ، وأرى أن دعاة المذاهب لا يزيدون عن تجار الشاى شيئاً ، وكلهم منصرف فى ترويج سلعته ، وليس من طريقة لترويج هذه السلعة إلا أن يمتدح كل واحد ما لديه من المال ويذم مال الغير ، فيجب على الانسان إذن أن ينتخب المال الجيد الرخيص » .

يعتقد اليابانيون أن الاله (إزاناكى) وزوجه (إزانامى) خلقا جزر اليابان ، وأن

ابنتهم (أماتيراسو) أرسلت حفيدها من أعالى السموات إلى الأرض قائلة : « اذهب إلى تلك الروضة الفيحاء ، والحديقة الغناء ، وأقم نسلا يحكم حتى الأبد » ، ففعل ذلك ، وها إن السلالة السلطانية هى من نسله ، وهذه العقيدة رائجة جداً . قال الدكتور سيدرس : سألت مرة أحدهم : لم هذه الخرافات التى تروجونها فى أسواق الجهل ، وأنتم لا تعتقدون بصحتها ؟ فأجاب بكل هدوء : إن هذه العقيدة ليست بأعجب من العقيدة النصرانية التى تدرس فى مدارس أوربا المتمدنة وجامعاتها ، وهى : أن المسيح ابن الله الوحيد ! .

بقيت اليابان منذ الخليقة حتى منتصف القرن الخامس عشر بعيدة كل البعد عن العالم — خيره وشره — راضية فى بلادها ، مطمئنة إلى حالها ، لا يعلم أحد بما فيها ، ولا هم يعلمون بما عند غيرهم ، إلى أن عصفت العواصف مرة بإحدى السفن البرتكيزية ، التى كانت ذاهبة إلى مرفأ (مكاو) فى الصين ، وألقتها على ساحل جزيرة من الجزر اليابانية ، وهنالك اضطر المسافرون جميعاً للنزول فيها ، كانت هذه الصدفة هى الفاتحة لسبيل الأوربيين إلى اليابان ، وهى المرة الأولى التى رأى فيها اليابانيون أناساً غيرهم فى بلادهم .

وما كاد الأوربيون يسمعون هذا الخبر ، ويعلمون أن فى تلك البلاد متسعاً للتجارة ، حتى قصدوها من كل حدب وصوب ، ومن هذا وجد القسس أيضاً متسعاً لهم فى هذا العالم يبذرون فيه بذور الشقاق بين أهله ، فقصدوه بخيلهم ورجلهم ، وأتوا إليه أفواجاً ، وأول فرقة منهم قصدت هذه البلاد هى الفرقة الفرانسية ، التى ترى أن الموت فى سبيل الدين هو المنية المطلوبة . ولما كان اليابانيون — كما ذكرت آنفاً — لا يعبأون بالدين ، ولا يظنونه إلا جمعية مدنية ، وسمعوا ما سمعوا من أقوال القسس الخلابة ، ظنوا أن السعادة كل السعادة فى اتباعهم ، حيث إنهم جاءوهم بخبر جديد لم يكونوا يعلمون به من قبل ، وهو : الحياة بعد البعث ، وما هنالك من النعيم والرفاهية والسعادة التى لا تنال إلا بهذا الاعتقاد ، فأقبلوا عليهم بكل شوق ، واندمجوا فيهم ، وأصبحوا أحرص على النصرانية من النصارى أنفسهم ، ولكنهم عجبوا جد العجب حينما رأوا سياسة القسوس قد تغيرت فجأة ، وأصبح أولئك الملائكة الأبرار رسل المحبة والسلام ، شياطين خبث وخداع ، ورسل عذاب وتفرقة ، فخالجتهم من أمرهم الريب ، ولا سيما ما ظهر لهم بعد ذلك من أن المسيحيين أنفسهم تكفر كل فرقة منهم الأخرى ، وتحكم بالعذاب الدائم .

وجد القسوس فى البلاد اليابانية صدوراً رحبة ، وسهولة كبيرة للتبليغ بمذهبهم ، حيث إن الحكومة سمحت لهم بالقاء المحاضرات حتى فى الشوارع وفى بناء البيع وغير ذلك ، ولم يمض عليهم إلا ٣٣ سنة ، حتى كتب رئيس المبلغين فى اليابان إلى روما يخبر أنه قد بلغ عدد المعتنقين للديانة المسيحية ١٥٠٫٠٠٠ نسمة ، ولو ثابر المسيحيون على التبليغ بصورة سلمية ، لكانت اليابان اليوم بلاداً مسيحية لا يوجد فيها إلا التثليث ، ولا يسمع فيها إلا صوت الناقوس ؛

ولكن اليابانيين — حيث إنهم يابانيون قبل كل شيء — لم ترقهم هذه التفرقة التي أحدثها القسوس ، واستغنوا عن تلك الفوائد الدنيوية الجمة التي كانت حاصلة لهم وعافوها ؛ حيث علموا أن هؤلاء المبشرين لم يقصدوهم لينجوا أرواحهم من العذاب — كما يقولون — بل ليسلبوا أوطانهم من أيديهم ، ويستبيحوا ديارهم ؛ ورغم ما اتخذه القسوس من الأسباب والوسائل لنجاح دعوتهم ، كارسال وفد ممثلا من المتنصرين من أمراء البلاد إلى أوربا ليروا ما لها من عظمة وشأن ، وكالتضييق على من لم يكن نصرانياً بأمر التجارة ،وعدم إرساء السفن بساحلهم وغير ذلك ،بالرغم مما تقدم فانهم لم يستفيدوا من كل هذه الأمور شيئاً ، حيث علم الناس أن لفظ النصرانية لا يزيد عن احتلال البلاد ؛ وهناك بعد أن كان كثير من ملوك (١) اليابان قد اعتنقوا النصرانية ، وأصبحوا يدافعون عنها دفاع المستميت ، لم يجدوا بداً من ترك هذا المعتقد ، وإجبار كل من اعتقد به على تركه ، لأن البلاد أصبحت محوطة بالأخطار السياسية ، وصدر أمر باخراج القسوس جميعاً من اليابان في مدة لا تزيد عن عشرين يوماً أو أن يكونوا عرضة للموت والعذاب ، فختى منهم البعض وارتحل حالا إلى الصين ، ولكن البعض منهم لم يرد بداً من المقام ولو أدى الأمر إلى الموت ؛ وبعد أن كان ملوك اليابان يجبرون رعاياهم على اعتناق النصرانية أصبحوا يجبرونهم على تركها ، والحكم بالاعدام على من يصر عليها .

صدر الحكم باخراج القسوس ، ولكن الحكومة لم تتعرض لمن لم يتخذ التبليغ مهنة له كالتجار وغيرهم من الأجانب ؛ بل أبقت لهم مالهم ،وسلكت معهم مسلكها القديم ؛ ولكن لما رأت الحكومة أن بعض القسوس لم يعبأ بأمرها وبقي مصراً على المقام ، لم تر من الانصاف إهراق دمائهم ، بل أصدرت حكماً بهدم جميع البيع في اليابان — طولها وعرضها — فهدمت ، ولكن مع ذلك لم تتخذ الشدة في التضييق على عمال النصرانية ؛ فعاد من القسوس بعض من كان قد رحل مرة ثانية بحيلة احتالها لهم حاكم جزائر فيليبين ، وجعلوا يقومون بأعمالهم ، ويبنوا الكنائس ؛ ولكن لما كان قد آن وقت أفول سعدهم لم تنفعهم الحيل . ولم يطل أمرهم ، وذلك : أنه كان قد قبض مرة على ربان سفينة اسبانية تحطمت على سواحل اليابان ؛ فلما سئل : كيف يطمع ملككم في احتلال بلاد هي أكبر من بلاده بمرات ؟ أجابهم على الفور : إن الأوربيين إذا ما أرادوا احتلال بلاد ما يرسلون أولاً جيوش قسوسهم فيمهدون لهم السبل ، ثم بعد ذلك التجار ، ومن ورائهم الجيوش والمدافع ؛ فما كاد ملك اليابان يسمع هذا القول حتى بلغ منه الغضب منتهاه ، وأمر حالا بالقبض على القسوس جميعاً ، وجدع أنوفهم ، وقطع آذانهم ، وتطويفهم في أسواق المدينة ، ثم صلبهم ؛ وهذه الواقعة هي أول نازلة نزلت على هؤلاء القسوس . وجعل اليابانيون يحاربون النصرانية بكل نشاط ، وهدموا أكثر بيعهم

(١) أقول الملوك ، لأن اليابان لم تكن تحت ملك واحد بل ملوك عديدين يرجعون جميعاً الى سلطان واحد ، كما كان الحال في آخر أيام العباسيين .

المرة الثانية ، ولكن أخيراً بعد أن كانت البلاد قد ارتقت نوعاً ما عن ذى قبل،ولم ير أهلها بداً من ربط تجارتها مع الدول الأوربية،عادوا إلى الاتفاق معهم ـ بعد أن كانوا منعوا نزول أى أجنبى فى بلادهم مدة تزيد عن ١٠٠ سنة ـ وعقدوا اتفاقات ومعاهدات تجارية مع أمريكا ثم مع الانكليز ثم الفرنسيين وغيرهم؛ومن ذلك العهد علموا أنه لم تطمع فيهم أوربا إلا لجهلهم، فقاموا لمقاومة الجهل ، واتجهوا نحو العلم وتوحيد صفوفهم أمام هذا العدو القوى ،والتفتوا لاصلاح البلاد من الجهة العلمية . وحيث إن الهولانديين كانوا أكثر الناس تجارة فى اليابان ، وكانت معاملاتهم متسعة مع اليابانيين ، لذلك اضطر اليابانيون لتعلم لغتهم للاستفادة منهم ، فقدموا عريضة إلى الحكومة يطلبون فيها السماح لهم بتعلم هذه اللغة،فسمحت لهم الحكومة بذلك ، بعد أن كان جزاء من يتعلمها الموت .

فما كاد هذا الخبر يشاع فى البلاد وينتشر ، حتى أقبل اليابانيون بشوق لا مزيد عليه لتعلم هذه اللغة ، وأظهروا من الاجتهاد الاعجاز ، وكانت باكورة أعمالهم فى هذا الأمر أن أخذوا المعاجم الموضوعة فى اللغة الهولاندية ونقلوها إلى لغتهم ، ثم إن أحدهم برع فى هذه اللغة ، حتى قرأ كتاباً فى علم التشريح وعلمه نحو ٦٠٠ تلميذ يابانى،وبرع آخر حتى إنه ترجم كتاباً فى علم النباتات إلى اليابانية ، وهو أول كتاب ترجم من العلوم الأوربية،وانهمك الجميع فى تحصيل العلوم بصفة عجيبة وغريبة جداً ، وأقدموا عليها كما يرد العطاش الماء ، حتى إن التعليم لم يكن محصوراً فى صغار السن ، بل قام الكبار منهم ـ حتى من لم يكن يملك قوت يومه ـ وأخذوا بقسط وافر من العلوم.ويعرف ما كانت عليه اليابان من الجهل من هذه الواقعة التى حصلت لبعض الأطباء ، وهى : أنهم أخذوا كتابا فى فن التشريح وقرأوه،ثم أرادوا تطبيق ما قرأوه ، فذهبوا وشرحوا جثمان مجرم كان قد أعدم ، فكانت دهشتهم وحيرتهم لا تقدر حينما وجدوا أن الصورة هى طبق الحقيقة ، وقرروا أن تركيب أهل الصين الداخلى غير تركيب العالم ، لأن كتبهم يختلف تشريحها عن هذه الصورة المطابقة للحقيقة ، فانهم نسبوا خطأ التشريح الصينى إلى أن تركيب أهل الصين مختلف لا إلى أنهم مخطئون فى ذلك ،لأنهم كانوا يعتقدون صحة تلك الكتب ، فكانت حالهم كما جاء فى الانجيل : « حينما رأى اليسوع لصا فقال له : أتسرق؟فقال له : لست أسرق ، فقال يسوع : صدقت وكذبت عينى » . هكذا كان حال هؤلاء الأطباء قبل مدة قليلة ، وقد ظهروا الآن أمام العالم باكتشافات طبية عجيبة بفضل اجتهادهم ، وكذلك فى علم الكيمياء والعلوم الطبيعية وغير ذلك ، أما ما لاقاه اليابانيون من المشقة فى أمر الترجمة، فهو مما يفوق التصور ، ولكنهم باجتهادهم ذللوا كل عقبة ، وامتطوا كل صهوة ، وخلقوا من لغتهم ألفاظا لكل المصطلحات الحديثة ، وأسسوا فى بلادهم أول مدرسة للطب فى مدينة (بيدوا) ، وقام بعد ذلك دعاة العلم فى البلاد يحثون على تحصيل العلوم،وفى مقدمتهم الأستاذ (فوكوزاوا) الذى أسس فى اليابان أول جامعة .

وسنذكر بعض أعمال هذا الأستاذ والمربى الأعظم مع شذرة من تاريخ حياته فى عدد آخر إن شاء الله ؟

إحسان سامى حقى